حضور التفكير العلمي في فلسفة فؤاد زكريا

The presence of the scientific thought in Fouad Zakaria' philosophy

د.جميلة حنيفي*

الإرسال:	2018/07/03	القبول:	2019/05/26	النشر:	2019/06/30

الملخص باللغة العربية:

ينصب موضوع ورقتنا هذه على تبيان مدى حضور التفكير العلمي في فلسفة فؤاد زكريا. ونستطيع أن نتبين ذلك في مستويين هما: مستوى اللغة المستعملة، أي ما هي أهم المصطلحات المستعملة وكيف تم استعمالها؟ ثم في مستوى المضمون الفلسفي ذاته وما ينطوي عليه من أفكار؟ وعموما ما نوع النظرة الفلسفية التي كونها هذا المفكر انطلاقا من الواقع التاريخي والثقافي للمجتمع العربي مستفيدا في ذلك من الفكر الإنساني الفلسفي عموما؟

الكلمات المفتاحية: العقل، التفكير العلمي، العقلنة، السلطة، التعصب

ملخص باللغة الإنجليزية:

Abstract: **Fouad Zakaria** is one of the names that undoubtedly, contributed to the richness and diversity of the Contemporary Arab thought. Along with Yahya Huweidi, Mahmoud Amin El-Alam and Zakaria Ibrahim, he represents the second generation of Arab thought. The subject of this paper focuses on the extent to which scientific thought is present in the philosophy of Fouad Zakaria. We will examine this at two levels: the level of the language he used,

* - أستاذة محاضرة أ، قسم الفلسفة بجامعة الجزائر2،البريد الالكتروني: [djamila.hanifi@univ-alger2.dz].

and the level of philosophical content itself and the ideas involved. On a whole, what kind of philosophical view has Fouad Zakaria elaborated, taking into consideration the historical and cultural reality of Arab society on one hand and benefiting from the Western philosophical tradition on the other hand?

Keywords: Reason, Scientific thought, rationalization, authority, fanaticism.

مقدمة:

إن الفكر الفلسفي العربي الحديث غني ومتنوع بالأفكار والمفاهيم والرؤى الفلسفية ذات الصلة المباشرة بالتيارات الكبرى الموجودة في الفلسفة الغربية المعاصرة. ومن الأسماء التي أسهمت بلا شك في حصول هذا الغنى والتنوع المفكر المصري فؤاد زكريا. وهو من الأقلام البارزة الثائرة في الفكر والسياسة على حد سواء. ويمثل إلى جانب يحي هويدي، محمود أمين العالم، وزكريا إبراهيم، الجيل الثاني من رواد الفكر العربي المعاصر بعد توفيق الطويل، زكي نجيب محمود، عبد الرحمن بدوي، ومحمود قاسم، رواد الجيل الأول.

تميز فؤاد زكريا بالجرأة في تناول الأفكار والتصدي لكل أنواع الفكر المتطرف، وهو كما وصف نفسه في تصدير كتابه **أراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة** ذو نزعة إلى تأمل الأمور بنظرة عقلية وبمنهج نقدي. وهما سمتان مرتبطتان لا انفصام بينهما. والعقل الذي يقصده هو ذلك الذي «يندمج في الحياة ويسخر نفسه لخدمتها...يعترف بالتطور والنمو في كل ظواهر الكون والحياة والمجتمع ويكرس جهده من أجل كشف مسارات هذا التطور والنمو...الذي لا يحول بين الإنسان وبين الاستغراق في حب الفن والانفعال الخصب بالحياة».[1] ولا شك أن هذا التحديد للعقل مرتبط أوثق ارتباط بالنقد إذ لا بد أن يكون العقل ناقدا وقادرا على تخطي الواقع وتجاوزه من أجل استكشاف آفاق أخرى أكثر رحابة واتساعا.

في البداية علينا أن نلقي نظرة موجزة على الفلسفة العلمية في الفكر الغربي، تاريخ ظهورها أهم روادها ومجمل طروحاتها الفلسفية. الفلسفة العلمية أو التحليلية

1- فؤاد زكريا، آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة،(مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975)، ص.ص5-6.

تيار فلسفي ساد النشاط الفلسفي المعاصر في البلدان الأنجلو-ساكسونية بداية من القرن العشرين، ويعتبر تيارا معارضا للفلسفة الهيجلية وللفلاسفة الهيجليين في جامعة كومبرج أمثال برادلي، بوزنكيت وتاغارت. ويتفق الفلاسفة التحليليون على أن الوظيفة المركزية للفلسفة هي توضيح معنى اللغة، ووصفها، وتحليلها وتحديد استعمالاتها ووظائفها. ولقد بين ذلك الفيلسوف لودفيج فتجنشتاين(1889- 1951) في كتابه **رسالة منطقية-فلسفية**1921 قائلا: « إن موضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقي للأفكار. والفلسفة ليست نظرية بل نشاط. إن العمل الفلسفي يتمثل أساسا في التوضيح. وإن أهمية الفلسفة ليست في عدد القضايا الفلسفية المحصل عليها بل في جعل القضايا واضحة. والأصوب للفلسفة ألا تقول شيئا ماعدا ما يمكن قوله، أي قضايا العلم...».[1]

يمكن أن ننظر إلى وجهة النظر التحليلية من جانبين اثنين مهمين. أحدهما إيجابي والآخر سلبي. من ناحية يمكن أن تكون وجهة النظر التحليلية إيجابية بالنسبة إلى الفلسفة، ذلك أن لغة العلم تنطوي أحيانا على غموض منطقي، ووحده التحليل اللغوي الصارم يمكن أن يكشفه ويتجنب وقوعه. ولكن من ناحية أخرى إن القول إن الفلسفة لا تصوغ قضايا فلسفية واضحة يؤدي إلى حصر النشاط الفلسفي وتضييق استعمالاته، حيث يتخلى الفيلسوف عن طموحه إلى تحقيق النظرة الكلانية المثالية للعالم فلا يبحث عن طبيعة الحقيقة وقضايا الأخلاق والدين، ولا يسعى إلى بناء أنساق فلسفية كاملة من أجل فهم الكون. وعوض عن ذلك سوف يركز اهتمامه على القضايا الفردية المتعلقة بمعاني اللغة واستعمالاتها.

إن هذه الفلسفة الجديدة لا تعتبر ندا للعلم أو منافسا له بل هي مرتبطة به أوثق ارتباط. وهذا ما نجده واضحا في قول رودولف كارناب:« نحن مقتنعون بأن الفلسفة ليست في حالة منافسة مباشرة مع العلوم. إنها نشاط ثانوي إذا صح القول، أي أنها لا تهتم مباشرة بالوقائع بل بالطريقة التي نعبر بها عن الوقائع »[2]. وإذا كان الأمر كذلك فإن القضايا الميتافيزيقية مستبعدة تماما من حقل البحث الفلسفي لأنها لا تقرر شيئا. ولا يمكن وصفها بالصدق ولا بالكذب لأنها لا تحتوي صوابا ولا خطأ، وبالتالي فهي تقع خارج ميدان المعرفة تماما.

[1] -Samuel Enoch Stumpf, Socrates to Sartre, A History of Philosophy, USA; Mc Graw-Hill book company, 1966.p437

[2] -Ibid, p445

وينبغي الانتباه إلى أن مفكرنا فؤاد زكريا قد تأثر بالفلسفة العلمية واصطبغت آراءه بروحها لكن لم يكن تأثره أعمى فكل فلسفة تصدر عن ظروف اجتماعية متميزة وخاصة بها، وبالتالي فهي ليست «نباتا شاذا تستطيع أن تزرعه في أية تربة وتستطيع أن تتوقع منه دائما نفس الثمار»[1]. وهكذا نجده في مقاله "أفق جديد للفلسفة(سوزان لانجر والفلسفة الوضعية)" انتقد موقف الوضعية المنطقية من الميتافيزيقا ووسمها بالنزعة التجريبية المتطرفة واعتبرها مجرد «انعكاس لنوع من الهزال الروحي للإنسان الحديث»[2] لأنها لا تؤمن إلا بعقيدة الوقائع القائمة على التحقيق التجريبي والملاحظة الحسية، أما كل ما عداها من أوجه النشاط الروحي في حياة الإنسان من فن وشعر وميتافيزيقا فتعتبره قضايا فارغة وخارجة عن عالم المعنى.

ويعود فؤاد زكريا إلى قول ايمانويل كانت:«إن للعقل البشري هذا المصير الغريب وهو أنه في أحد أنواع معرفته (يقصد الميتافيزيقا) تلح عليه أسئلة لا يستطيع تجاهلها لأن طبيعة العقل ذاتها تفرضها ولكنه أيضا لا يستطيع الإجابة عنها لأنها تتجاوز جميع قواه».[3]

حقيقة إن العلم محدود بوقائع العالم المادي فهو عاجز عن إدراك المسائل الميتافيزيقية ولكن هذا لا يبرر القضاء على التأمل الميتافيزيقي، ذلك لأن الإنسان يحتاج بطبيعته الفضولية الفطرية إلى استكناه الوجود وفهمه والبحث عن علله البعيدة. وإن « النظرة المتكاملة إلى الإنسان ينبغي أن تدخل الفن والشعر الميتافيزيقا وطقوس العبادة في عالم المعنى، عالم التجارب التي تضفي ثراء على حياة الإنسان وتوسع أفقه الروحي وتزيد من فهمه لنفسه وللعالم المحيط به.»[4]. وإن نطاق المعاني أو تجارب الإنسان الباطنية الحية فسيح جدا ولا يمكن لرموز اللغة العلمية أن تستوعبه أو تعبر عنه في كليته.

ولمقاربة الموضوع أكثر وهو مدى" حضور الفلسفة العلمية في فكر فؤاد زكريا" سنحاول التوقف عند نماذج من كتابات هذا المفكر الثائر وذلك لأجل التعرف على

1- فؤاد زكريا، المصدر السابق الذكر، ص.237.
2 - المصدر نفسه، ص415.
3- المصدر نفسه، ص419
4- المصدر نفسه، ص416

مضامينها واستكشاف أبعادها ومحاولة النقد كلما تسنى لنا ذلك. وأولى هذه الإنتاجات الفلسفية التي استرعت انتباهنا هو كتاب **التفكير العلمي** الذي تناول فيه مميزات التفكير العلمي وعقباته أو الضغوط التي تعترض طريق انتشاره وتقلص إمكانياته وغيرها من الأفكار الأخرى المهمة.

إن مشروع تأسيس العقلانية وإرساء خصائص التفكير العلمي في المجتمع العربي ليس مسعى جديدا قاصرا على مفكرنا فقط، إنما هو مسعى جل المفكرين العرب المعاصرين سواء من المشرق أو من المغرب أمثال زكي نجيب محمود، محمد عابد الجابري وغيرهما من الذين تناولوا إشكالية تخلف المجتمع العربي عن تحقيق نهضته المنشودة فاقترحوا مشاريع للنهوض السياسي والاجتماعي والثقافي ولكلٍّ منطلقاته ووجهة نظره.

وكما ورد في مقدمة الكتاب ليس المقصود بالتفكير العلمي تفكير العلماء ذاتهم ولا الخوض في ميادين تخصصهم المختلفة أو لغتهم المليئة بالرموز والأرقام. بل المقصود هو التفكير المنظم القائم على جملة من المبادئ مثل ألا شيء يحدث من دون سبب. والأهم هو ممارسته في مختلف شؤوننا اليومية من الأسرة إلى الجامعة، إلى النادي وإلى المجتمع بأسره.

إن الهدف هو أن يسود المنهج العلمي في التفكير أو" العقلية العلمية" حتى تغدو ممارستها عادة راسخة في سلوك الناس وفعالياتهم، وبذلك فقط يمكن التحرر من براثين الجهل والخرافة وصدإهما، ودوغماتية العادات والتقاليد الفاسدة والأحكام المسبقة والتعصب للآراء أو للأشخاص. وفي الحقيقة هذه المسألة تحتاج إلى نظر وتريث لأن العلم لا يمكن أن يكون رادعا قويا، إذ في أحيان كثيرة يكون العلم ذاته مهددا للقيم وما يشهده عصرنا من ويلات الحروب والفتن الطائفية والسياسية خير دليل على ذلك.

ينتقد فؤاد زكريا أولئك الذين يقاومون أساليب التفكير العلمي وفي الوقت نفسه يشيدون ويفخرون بجهود العلماء المسلمين الذين سبقوا الغرب بإنجازاتهم. إنه موقف يتضمن –وفقه- تناقضا صارخا. وسبب هذا التناقض أحد أمرين، إما الاعتزاز القومي لأن العلم صدر منا أو الاعتزاز بالتراث. وسواء تعلق الأمر بهذا أو بذاك أو هما معا فإن الإنجاز العلمي الذي حققه المسلمون في الفترة الزاهية من الحضارة الإسلامية لا يمجد لأنه علم بل لأنه واحد من تلك العوامل التي تمكن العرب من الاعتزاز بأنفسهم

أو بتراثهم. وفي الحقيقة هذه مشكلة نفسية عويصة إذ نكمل عقدة النقص التي نعانيها بالتباهي بما حققه الأجداد من أمجاد. بمعنى نحقق ذواتنا بما أنجزه أجدادنا وهذا هو عين الاغتراب.

يعتقد فؤاد زكريا أن موضوع التفكير العلمي هو موضوع الساعة في العالم العربي الذي يشهد معارك ضارية يقودها المفكرون -غير المسيّسين إن صح التعبير-في سبيل إقرار أبسط مبادئ التفكير العلمي ضد قوى الجهل والخرافة والتطرف. والعلم لا يمثل أبدا خطرا على الإنسان ولن يكون كذلك إذا ما أحسن الإنسان استخدامه وتوجيهه، فهو منهج منظم لرؤية الأشياء وفهم العالم.

في الحقيقة إن دعوة فؤاد زكريا إلى إحلال التفكير العلمي في المجتمع ليست بعيدة عن دعوة الفيلسوف البراغماتي جون ديوي في النظر إلى العلم، من حيث هو« موقف إرادة دأبت على استخدام طرق معينة من الملاحظة والتفكير والتجريب والتحقيق وتفضيلها على طرق القسر والقمع»[1]. والذي رأى ضرورة أن يصبح العلم ذاته عنصرا فاعلا مندمجا في ثقافة المجتمع بشتى نواحيها السياسية، الاقتصادية، الدينية، التربوية والفنية، أي لا يقتصر التطبيق العلمي على النواحي الفيزيائية فقط إنما يجب أن يمتد إلى المعاملات والشؤون الإنسانية. ولقد تبين أن جون ديوي كان مبالغا في طموحه، فما حال مفكرنا خاصة أن المعطيات الاجتماعية والسياسية للمجتمع الأمريكي والمجتمع العربي مختلفة بل ومتباينة أشد ما يكون التباين ؟؟ نتساءل ألا يجعل فؤاد زكريا من العلم مصدرا مشرعا للقيم الاجتماعية والسياسية والأخلاقية ؟هل هذا مشروع قابل للتحقيق أم أنه بالغ الصعوبة والتعقيد- إن لم نقل مستحيل- في مجتمع متصدإ بالعادة والتقليد والفهم المنغلق والمتزمت للدين، مجتمع يحكمه الفقهاء أكثر مما يحكمه العقل؟

حدد فؤاد زكريا خصائص التفكير العلمي التي بواسطتها نقيس مدى علمية أي نوع من أنواع التفكير الإنساني. وتتمثل في التراكمية حيث كل معرفة علمية تعد معرفة تراكمية ونسبية وكذلك متطورة باستمرار. وكل نظرية علمية جديدة تتجاوز النظرية القديمة، فهي إما تلغيها أو توسعها وتكشف عن أبعاد جديدة لها. وهناك في مجتمعاتنا من يتحامل على العلم بحجة أنه متغير وحقائقه محدودة بعالم الظواهر

[1] Dewey. J, Intelligence in the Modern World, John Dewey Philosophy, edited by Ratner. J, p.951.

الحسية. ولكنه من الخطأ غير المقبول اعتبار سمة التغير هذه علامة نقص، فمن طبيعة العلم أن يتسم بحركية دائبة. أضف إلى هذا لدى فؤاد زكريا إيمان قاطع ومبالغ فيها أيضا بأن المعرفة العلمية يمكن أن تقتحم ميادين أخرى في المستقبل. وحجته في ذلك أن العلم يسير باطراد، ففي البداية كانت الاهتمامات العلمية مركزة على ظواهر الطبيعة دوما ثم تبعتها دراسة الإنسان التي تتشابك فيها الأسباب والنتائج وتتعقد.

ومن أهم صفات التفكير العلمي أيضا التنظيم ومعناها ترتيب الأفكار. وذلك يحتاج إلى التركيز في الموضوع محل البحث. وهي صفة لا تتم دفعة واحدة بل إن صقلها يحتاج إلى مران خاص وممارسة مستمرة. ولا يقتصر هذا التنظيم على العالم الداخلي بل يتعداه إلى العالم الخارجي ذلك لأن العالم ملئ بالحوادث المتشابكة والمتداخلة، وعلى الباحث أن يستخلص من كل هذه العلاقات المتشابكة والمعقدة بين الظواهر مجموع الوقائع ذات العلاقة بميدانه الخاص، فالمؤرخ مثلا ينتقي من بين ألوف الحوادث الماضية ما يهم موضوع بحثه فهو ينظم الواقع غير المنظم.

وليست صفة التنظيم هذه مقتصرة على العلم وحده، بل حتى التفكير الأسطوري والتفكير الفلسفي يتصفان بها إذ كلاهما يحاول إيجاد نظام معين لما يجري في الكون من ظواهر. وإن التنظيم الموجود في العلم هو إبداع بشري ناتج عن جهود متواصلة من أجل اكتشاف المعرفة. والوسيلة التي تمكن العلم من بلوغ غاية التنظيم هي اتباع منهج. وهذه سمة أساسية في كل تفكير علمي، فلا يمكن أن يكون البحث العلمي بحثا عشوائيا بل بحث يخضع لقواعد معينة. ويتمثل هذا المنهج في خطوات: الملاحظة، الفرضية، التجربة.

كذلك يهدف العلم إلى البحث عن الأسباب المتحكمة في حدوث الظواهر. ولهذا البحث هدفين هما:

-إرضاء النزوع الطبيعي والفطري إلى معرفة أسباب الظواهر

- الرغبة في تحقيق نتائج عملية أفضل، فمثلا معرفة أسباب الأمراض لازمة حتى تكون معالجتها ممكنة.

أضف إلى ذلك لا بد أن يكون العلم معرفة شاملة تنطبق قضاياه على جميع الظواهر وتفرض نفسها على كل العقول بالأدلة والبراهين المنطقية المقنعة. وطبعا إن الوصول إلى هذا اليقين الموضوعي يتطلب القضاء على الأوهام والخرافات. كما يتسم

العلم بالدقة وذلك بفضل استخدام لغة الرياضيات. ولقد أكسب هذا الاستخدام العلم صفة التجريد التي تضمن للإنسان سيطرة أفضل على الواقع وفهما أفضل لقوانينه.

كذلك تطرق فؤاد زكريا إلى العقبات التي تعترض طريق التفكير العلمي. وأولاها انتشارا الفكر الأسطوري والفكر الخرافي. وإن الثاني أخطر من الأول. ذلك لأن الأسطورة كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة لتفسير ظواهر العالم الكبير وظواهر العالم الإنساني. أما الخرافة فهي إنكار تام للعلم ورفض قاطع لمناهجه. وإذا كان الفكر الأسطوري قد ولى فإن الفكر الخرافي ما يزال إلى أيامنا هذه حيا ومؤثرا في عقول كثيرة. و« إن ظاهرة الفكر الخرافي أعقد من أن تكون مجرد بقية من بقايا عصور ماضية يستطيع العلم في مسيرته الظافرة أن يكتسحها ويمحو أثارها ذلك لأن الفكر الخرافي يظل منتشرا بين الناس حتى في أكثر المجتمعات تمسكا بالتنظيمات العلمية»[1] فما الحال في مجتمعاتنا؟؟.

إن استمرار الفكر الخرافي بأشكال مختلفة في المجتمعات المتقدمة (مثل قراءة الطالع بواسطة أحدث الأجهزة الالكترونية، استحضار الأرواح، التشاؤم من الرقم 13، الحسد، الجن والعين) لا يشكل البتة ضررا كبيرا على حركية التطور فيها لأن المسار العام للحياة يظل خاضعا "للعقلانية والترشيد والتخطيط المدروس". كما أن الميول الخرافية تتخذ شكلا فرديا فتأثيرها لا يمتد إلى المجتمع ككل. وبالتالي فإن اللجوء إلى الخرافة ليس إلا شكلا من أشكال التمرد على العقل الذي تغلغل في كل زاوية من زوايا المجتمع. ولكن الأمر مختلف تماما في مجتمعاتنا حيث يبدو التفكير الخرافي معاديا للعلم والعقل. وفي الحقيقة ليس هذا العداء إلا امتداد واستمرار لتاريخ طويل كان العلم والفلسفة يخوضان فيه معركة شاقة مريرة أحيانا لكي يثبتا وجودهما.

إن انتشار الخرافة عندنا ليس إلا دليل على الجمود والتحجر، ويزداد الأمر خطورة عند الربط بين الخرافة والدين حيث يؤكد البعض أن الدين أيضا يتحدث عن السحر، وفي الحقيقة ليس هذا إلا استغلال لإيمان الناس من أجل تأكيد الخرافة ذلك لأن الإسلام لا يتعارض مع البحث العلمي.

إن العقبة الثانية لانتشار التفكير العلمي تتمثل في الخضوع للسلطة. وأول عناصرها أنه كلما كان الرأي قديما وموروثا عن السلف كان رأيا حكيما. وهذا الموقف

1- فؤاد زكريا، التفكير العلمي، (مصر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2003)، ص19

يتضمن تمجيدا رومانسيا وخياليا للماضي. وهذا عين الخطأ فالقديم ليس بالضرورة صائبا ومقبولا لأن القدماء عاشوا في فترة كانت معارف البشرية وتجاربها محدودة.

ثاني عناصر السلطة هو مدى انتشارها في أوساط الجماهير، فكلما كان الرأي شائعا بين الناس كلما اكتسب سلطة أكبر، « وكلما كان الرأي منتشرا ومألوفا كان في قبوله نوع من الحماية لصاحبه إذ يعلم أنه ليس الوحيد الذي يقول به بل يشعر بدفء الجموع الكبيرة وهي تشاركه إياه ويطمئن إلى أنه يستظل تحت سقف الكثرة الغالبة»[1].

إن نظرة متعمقة تبين لنا أن الانتشار ليس مقياسا لجودة السلطة أو صلاحها فالقصة البوليسية-كما ذكر فؤاد زكريا- تباع أضعاف ما تباع به قصة من الأدب العالمي الرفيع، والأغنية التافهة تحقق أرباحا خيالية لا تحققها مقطوعة من مقطوعات بيتهوفن الخالدة.

وما ينبغي التنبيه إليه هو أن البعض يقف متحديا ما هو شائع بصفة سطحية دون تقديم البديل المناسب، لا يقودهم في سلوكهم إلا الرغبة في مخالفة الأخر، فهم يعتقدون أن معارضتهم للرأي السائد أو للذوق العام أو للاعتقاد الشائع كفيل بأن يجلب لهم الشهرة في المجتمع دون أن يسهموا إسهاما إيجابيا في ذلك بأن يقترحوا بديلا معينا. ففي فترة السبعينات مثلا تمرد الشباب في الغرب على سلطة المجتمع الرأسمالي المظهري المتأنق الذي يخلو من القيم الإنسانية النبيلة والسامية نتيجة طغيان القيم الاستهلاكية، فعمدوا إلى استرسال شعورهم ولبس ملابس رثة ومهلهلة. ولكن انتقال هذه الظاهرة إلى مجتمعاتنا أمر غير طبيعي ولا يمكن إيجاد أي تفسير منطقي له ما عدا الرغبة في الاشتهار بمظهر معين. أضف إلى ذلك فإن" المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب".

والشهرة من الدعامات الأخرى للسلطة حيث يكتسب الرأي سلطة كبرى في أذهان الناس إذا صدر عن شخص اشتهر بينهم بالخبرة والدراية في ميدانه. ولهذا العنصر خطرين اثنين. يتمثل الأول في أن شهرة الشخص مرتبطة بزمان معين ولا يمكن تمديدها إلى أبعد ما يسمح به دوره التاريخي. بينما الثاني فيكمن في فكرة تضخيم الشهرة بواسطة وسائل الإعلام الحديثة. وإضافة إلى الشهرة تعتبر الرغبة أو التمني من

1-المصدر السابق، ص54

العناصر المدعمة للسلطة حيث يصدق الناس ما يرغبون فيه ويحاربون ما يتعارض ورغباتهم.

ومن العقبات الأخرى التي تقف حائلا دون انتشار التفكير العلمي؛ إنكار قدرة العقل حيث يرى البعض أن قوة العقل محدودة وقاصرة عن حل مشكلات كثيرة ولهذا لا بد من الاعتماد على قوة أخرى هي الحدس. ولكن ينبغي التمييز بين ميدان العقل وميدان الحدس« فالعلم المرتكز على العقل شكل ضروري من أشكال المعرفة. وكان لا بد أن يتخذ طابعه هذا حتى ينمو ويتطور. ومهاجمته باسم تلك التجربة الفريدة التي لا يمكن التعبير عنها هي خلط بين ما يصلح على مستوى العلاقات الشخصية وما يصلح على مستوى المعرفة العامة»[1].

يعتبر التعصب أيضا عقبة أخرى خطيرة جدا. ومعناه الاعتقاد الباطل بأن المرء يحتكر لنفسه الحقيقة بلا مناقشة وبطريقة خالية من المنطق في غالب الأحيان. ويرفض رأي الأخر بل ويسعى إلى هدمه. و المتعصب في الحقيقة يفقد شخصيته واستقلاله في أخذ القرار ويصبح خاضعا للجماعة التي ينتمي إليها، يتقبل القرارات بلا أية مناقشة أو إبداء للرأي. وبذلك يلغي المتعصب –سواء أكان عنصريا أم قوميا أم متطرفا دينيا- حرية تفكيره ويرفض التساؤل والنقد. وبدلا منها يشجع قيم الخضوع والطاعة والاندماج مع الغير. والتعصب مناقض لطبيعة الحقيقة العلمية لأن حقائقه ذاتية ومتعددة ومتناقضة.

في مقاله "التعصب من زاوية جدلية" بين فؤاد زكريا أن التعصب ظاهرة قديمة قدم البشرية. وهو أنواع متعددة منها التعصب القبلي أو الوطني والقومي أو الديني والطائفي أو العنصري والعرقي. وهي ظاهرة يمكن إخضاعها للدراسة النفسية أو الاجتماعية أو التاريخية أو البيولوجية. كما أن المعالجة الفلسفية يمكن أن تسهم في تسليط الضوء على الجوانب المستترة منها، وبذلك تكمل نقائص العلوم الأخرى. ذلك لأن ظاهرة التعصب لها أبعاد تعجز العلوم المذكورة أنفا عن استكشافها. إنها تلك الأبعاد العميقة التي تكمن وراء كل معالجة علمية خاصة لمشكلة التعصب وتنكشف للتفكير الفلسفي وحده وذلك عن طريق المنهج الجدلي.

1- المصدر السابق، ص66

إن التعصب يتضمن عنصرين متلازمين تلازما وثيقا أحدهما إيجابي والآخر سلبي. يتمثل العنصر الإيجابي في اعتقاد المرء بأن الفئة التي ينتمي إليها قبيلة كانت أو وطنا أو مذهبا فكريا أو دينيا أسمى وأرفع من كل الفئات الأخرى المتبقية. أما العنصر السلبي فيتمثل في الاعتقاد بأن الفئات الأخرى أحط من تلك التي ينتمي إليها. ولكن يمكن التمييز بينهما ذلك لأن الوجه السلبي للتعصب كان أكثر بروزا وطغيانا، فالمتعصب هو دائما شخص يحتقر الآخر، يكرهه ويتحامل عليه إما بسبب الحسد أو التكبر والاستعلاء. أما في الوجه الإيجابي للتعصب فيميل المتعصب إلى تأكيد ذاته وسمو الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها. و هذا ليس جوهر التعصب لأنه لا يترتب عنه ازدراء الآخرين أو الرغبة في إلحاق الضرر بهم. فالفلسفات الأرستقراطية مثلا ترفض التعصب وكراهية الآخرين لأنه سلوك لا ينسجم مع ثقة المرء بنفسه وبقدراته.

في النظرة السلبية للتعصب يبرر المتعصب تحامله على الآخرين بالاعتقاد الزائف بوجود الشر في نفوسهم مما يبرر استغلالهم. فالأغلبية البيضاء تمارس التفرقة العنصرية ضد الأقلية الزنجية مبررة سلوكها بوجود الشر في نفوس الزنوج. ولكن هذا تفسير سطحي جدا لا يتغلغل إلى ما تنطوي عليه المشكلة من تعقد و تشابك لا يمكن تفكيكهما إلا بالتفكير الجدلي، «فانحطاط الزنجي ليس سببا للتعصب ضده فحسب، بل هو قبل ذلك نتيجة لهذا التعصب. وممارسة التعصب تزيد من تدهور الجماعة التي يمارس ضدها التعصب، وبذلك تكتمل عناصر الحركة الجدلية في علاقة التعصب»[1] وتصل إلى التضاد بين الطرفين. فكلما ازدادت ممارسة التعصب وطالت ازدادت الظروف التي تبرره تدهورا وهكذا ودواليك. وإن إيقاف هذه الحركة الجدلية ممكن، ويتطلب جهودا معينة من الأغلبية المسيطرة حتى يتحقق التقارب بين الطرفين وبذلك تزول أسباب التعصب.

عادة يفهم أن التعصب ينشأ لدى الأغلبية ضد الأقلية ولكن هناك حالات قليلة لا تنطبق عليها هذه القاعدة ولكنها أشد شراسة وعدوانية، حيث يبدأ التعصب لدى الأقلية مما يضطر الأغلبية إلى الدفاع عن نفسها أو ممارسة تعصب أكثر عنفا. مثال ذلك تعصب الأقلية الحاكمة في روديسيا وجنوب إفريقيا ضد الأغلبية السوداء من سكان البلاد الأصليين أو تعصب اليهود عبر التاريخ وأسطورة شعب الله المختار التي

1- المصدر السابق، ص. 77

تعتبر مثالا صارخا لتعصب الأقلية ضد الأغلبية. ويكشف التحليل الجدلي للاضطهاد العنصري لليهود أن هذا الاضطهاد ما هو إلا رد فعل من الأغلبية لأن الاضطهاد الأصلي «هو ذلك الذي تمارسه الأقلية اليهودية وهو بطبيعة الحال اضطهاد صامت مستكين حين تكون هذه الأقلية في مركز الضعف ، ولكنه ينقلب إلى وحشية مخيفة حين تتحول إلى مركز القوة»[1]، كما الحال في فلسطين.

وينتهي فؤاد زكريا إلى نتيجة أن الكفاح ضد التعصب لا يتم عن طريق الإصلاح أي الوعظ الأخلاقي بل عن طريق كفاح إيديولوجي واجتماعي وسياسي. وهذا الحل يبدو موجزا أو غامضا يحتاج إلى إيضاح أكثر.

إن الإعلام المضلل هو أخر عنصر أدرجه فؤاد زكريا ضمن العقبات المعيقة لازدهار التفكير العلمي ونضجه نضجا وافيا وكافيا خاصة في مجتمعاتنا العربية الإسلامية. وهذا الإعلام تبثه وسائل مختلفة سواء كانت مسموعة أو مرئية أو مكتوبة. وهي تسعى إلى استمالة عقول الجماهير وتخديرها وشل قدرتها على التفكير الحر وجعلها منقادة ومستسلمة. وهي تفعل ذلك إما لغرض اقتصادي كترويج السلع الاستهلاكية بين الناس أو لغرض سياسي كدعم نظام سياسي معين أو شخصية سياسية معينة ومنحها الزعامة. وهي في مجتمعاتنا" تشجع التفاهة وترعاها بكل عناية"، « فما أسرع ما تضيق صدورنا في العالم العربي بالمعارضة وما أسهل اتهام أصحاب الرأي الآخر بالعمالة والخيانة وربما الكفر لمجرد أنهم لا يسيرون في الركاب السلطاني للرأي الواحد».[2]

إذن لقد تطرق فؤاد زكريا إلى مسائل هامة تعتبر هاجس النخبة العربية المثقفة سواء في المشرق أو في المغرب. وذلك من أجل تنوير الدرب للنهضة المنشودة وتجاوز عقبة التخلف. ومع ذلك فإن طموحه يتطلب إرساء قواعد ونظم تربوية معينة تحضر الأرضية لميلاد عقل جديد. عقل يحترم التقليد لكن لا يهابه ولا يخضع له بل يسائله ويرجّه من الداخل رجّا بحيث يتنقى من كل ما يشوبه من ترهات.

وفي هذا السياق وفي مقاله "أزمة العقل في القرن العشرين" يوضح فؤاد زكريا المقصود بأزمة العقل قائلا هو« الوعي بقصور القديم وضرورة تجاوزه. وهي بذلك

[1]- فؤاد زكريا، آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، ص.ص50-51
[2]-المصدر نفسه، ص52

تمثل الشرط الذي لا غناء عنه من أجل تحقيق هذا التجاوز»[1] ويمكن« أن تظل الأزمة في مرحلتها السلبية دون أن تهتدي إلى وسيلة تعين العقل على تجاوز ذاته أو تؤدي إلى خطوة أخرى تبدو في مظهرها إيجابية وإن كانت تمثل بالفعل ارتدادا لا تقدما».[2] وفي الحالتين فإن أزمة العقل دليل على مرض المجتمع.

هذا وإن أخطر قوة تهدد سلطان العقل وتكبلها هي سلطة الوحي الديني، وتحديدا سلطة الفقيه. إنها وفق فؤاد زكريا السلطة الحقيقة المقابلة للعقل- إضافة إلى سلطات أخرى ضاغطة هي: المجتمع الأسرة، القبيلة، العاطفة والأسطورة-التي لا تقبل المناقشة ولا التحول ولا التطور ولا التعديل ولا التصحيح فأحكامها ذات صدق مطلق« وبينما يؤدي اتباع منهج الخضوع للسلطة إلى التحجر والجمود فإن الارتكاز إلى العقل يعني المرونة والتفتح واتساع الأفق»[3].

يتساءل فؤاد زكريا هل أزمة العقل لدينا مشابهة لأزمة العقل في المجتمع الغربي أم أنها شيء مختلف تماما قائم بذاته، وبالتالي لا يصح أن تطبق عليه المقولات نفسها المستخدمة في وصف الأزمة الفكرية العالمية؟

إن العقل في الغرب يتمرد على ذاته وهذه أعلى ذروة يمكن أن يصل إليها في تحقيق ذاته. وكما يرى مفكرنا فإن الأزمة عندهم هي أزمة ما بعد العقل على حين إننا ما نزال نمر بأزمة ما قبل العقل، أو أزمة "العقل الذي ما يزال يكافح في سبيل أن يخرج إلى النور". وهكذا فإن العقل عندنا لم يستكشف ذاته بعد وما تزال قوى الأسطورة والخرافة والخضوع للسلطة السياسية أو الدينية المتطرفة والتعصب الأعمى و الإعلام المضلل تحاصره وتضيق عليه الخناق رغبة في تعطيله أو إلغائه تماما. ويزداد الأمر خطورة بسبب عامل الخوف من التفكير الحر حيث تفقد العقول القدرة على ممارسة فاعليتها وبذلك يتضاعف صدأها ويتراكم حتى بعد زوال أسباب الخوف.

ومن مظاهر أزمة العقل أننا ما نزال مهتمين بمسألة التوفيق بين العقل والنقل وهي تبدو مستعصية وبعيدة عن الحسم. ولا شك أيضا أن الدعوة إلى سيادة التفكير العلمي في المجتمع هي ذاتها دعوة محفوفة بالعقبات. وإذا كان ديوي قد اعتبر

1- المصدر السابق، ص90

2- فؤاد زكريا، آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، ط1(مصر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2004). ص15.

173- المصدر نفسه، ص15

من قبل النقاد ذو نظرة تشوبها الطوباوية إذ دعا بإيمان قوي ومبالغ فيه إلى إمكانية توسيع تطبيقات المنهج العلمي إلى الحياة اليومية للناس، وإلى اعتبار العلم الوسيلة القمينة بحل جميع مشاكل الإنسانية فما حال مفكرنا وهو ابن مجتمع نخر جسده التخلف والخرافة؟؟

في مقاله «أخلاقنا العلمية...إلى أين؟» يتحدث فؤاد زكريا عن الأخلاق العلمية أو تلك المجموعة من القيم والقواعد والمعايير المرتبطة بممارسة العالم لعمله العلمي. ورغم أن مجال العلم هو مجال تقرير قوانين حدوث الظواهر الفيزيائية ومجال الأخلاق هو مجال القيم فإن بينهما علاقة متبادلة قوية «فارتفاع المستوى العلمي في الفرد أو في الأمة يعني مزيدا من الارتقاء في الأخلاق العلمية. وإن الحرص على مراعاتها، والتمسك بالأخلاق العلمية يؤدي من جهة أخرى إلى مزيد من التقدم العلمي ويزيل كثيرا من العقبات التي تعترض طريق العلم».[1]

وإذا كنا نأمل إلى تحقيق مستوى علمي رفيع فعلينا أولا الاهتمام بالأخلاق العلمية فمن المحال تصور إمكان حدوث نهضة علمية دون أن يحدث في الوقت نفسه الارتفاع نفسه في مستوى القيم التي يسلك بمقتضاها المهتمون بميدان بالعلم والمشتغلين فيه. كذلك يرى فؤاد زكريا« أن كل نهضة علمية تحتاج إلى مناخ أخلاقي معين لا تزدهر إلا فيه، وكل تقدم في العلم يرتبط بمراعاة تقاليد سلوكية راسخة توطدت دعائمها في المجتمعات التي سبقتنا في هذا المضمار وازدادت فيها تأصلا كلما ازداد العلم ذاته نهوضا».[2]

وفي هذا الصدد ينتقد فؤاد زكريا أصحاب السرقات العلمية ويلوم المتسترين على هذه الجرائم الفظيعة في حق العلم ويدعو إلى معاقبتهم أشد العقوبة وذلك باستبعادهم من أية هيئة علمية.

ومن مظاهر الافتقار إلى التقاليد العلمية الراسخة عدم التعامل تعاملا موضوعيا مع الحقائق والأشخاص بالفصل بينهما وعدم الخلط بين ما هو موضوعي وما هو ذاتي وشخصي ضيق. وإن افتقارنا إلى النقد العلمي يعد أسوأ مظاهر الافتقار إلى الأخلاق العلمية. ففي حين يعد النقد ركيزة التقدم في البلدان الغربية ومعيار نجاح أو إخفاق أي جهد معرفي علميا كان أو غيره نعتبره نحن سبا وذما وشتما« لا يقل خطورة

1- المصدر السابق، ص21

2- فؤاد زكريا، آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975)، ص. 130

عن إعلان الحرب بين الدول إنه يؤخذ على أنه مظهر خصومة ودليل على العداء لا على أنه سعي متبادل إلى بلوغ الحقيقة».[1] وإن الحل لا يكمن في الوعظ والإرشاد بل في النظر في الظروف الموضوعية التي تكمن وراء المشكلة.

إن إرساء التقاليد العلمية لدى الغرب تم على قاعدتين متينتين قاعدة رأسية وقاعدة أفقية. تتمثل القاعدة الرأسية في قدم ممارسة العلم ورسوخ مبادئه وقيمه في أذهان المشتغلين به.أما القاعدة الأفقية فتتمثل في اتساع نطاق الباحثين والمهتمين بالعلم في هذه البلدان. وإذا كان عدد المشتغلين بالعلم كبير جدا بتعدد التخصصات فإن إمكانية حدوث السرقات العلمية وانتحال جهود الآخر تتقلص. وإذا ما حدثت فإن العقوبة تكون صارمة حازمة أيضا لا تهاون فيها أو مجاملات أو استثناءات كما الشأن عندنا.

إذن إن الأخلاق العلمية وليدة ظروف موضوعية. وهي في البداية تأخذ شكل الإكراه والقسر ثم لا تلبث أن تشكل جزءا من الضمير الأخلاقي للعالم حيث يفرض عليه الوازع الأخلاقي وحده ممارستها و احترامها. وهكذا إننا ما نزال« بعيدين عن تلك المرحلة التي تتحول فيها القاعدة الأخلاقية الموضوعية إلى قاعدة ذاتية يطبقها المرء على نفسه بوحي من ضميره فحسب».[2]

بناء على كل ما سبق واعتبارا لما هو راهن نقول إن مقترح فؤاد زكريا قد ولد في ظرف غير مواتي -شأنه في ذلك شأن مقترح زكي نجيب محمود-. إن الشروط العامة الأساسية الاجتماعية والسياسية والدينية لم تتوفر بعد لتحقيق مثل ذلك المشروع الفكري النهضوي العلماني. وهذا يقودنا إلى القول أيضا إنه من غير المنصف تماما وصفه بالفشل، وإنما توقيت ظهوره لم يكن مناسبا، حيث وجد المفكر نفسه يتبارز مع الفقهاء في معركة خاسرة من البداية لأن العامة ميالة إلى من يدغدغ مشاعرها وعازفة عمن يحاول نفض الغبار عن عقلها.

إن ذهنية مجتمعاتنا ما تزال ذهنية قروسطية متشبثة بالماضي إلى أقصى الحدود، بل إلى حد يتماهى فيه المستقبل مع الماضي أو لنقل المستقبل ما يزال باقيا سجين الماضي وبلا معالم محددة. فكيف لمجتمعات تنصت لوعيد الأئمة وخطاباتهم التهويلية ولا تنصت لصوت العقل أن تجعل العلم نبراسا لها. وإذا ما قلنا إن تحقيق

1-المصدر السابق، ص.ص130-131.
2- المصدر نفسه، ص.133.

النهضة يتم عبر طريق العلم فمعناه أن يتسرب التفكير الموضوعي النقدي إلى كافة مجالات حياتنا، أن تحترم الحريات الفردية، أن نحلل ونجزئ المركبات إلى مكوناتها البسيطة، أن نبحث عن العلل القريبة وذلك بأن نفصل بين مجال المطلق ومجال النسبي، فمن دون هذا الفصل يبقى العقل معطلا. فكلما فكرنا في النسبي بإرجاع أسباب حدوثه وبطلانه إلى المطلق وكفى، كلما ابتعدنا عن العلم ومقتضياته. لا يهز عرش الكهنوتية في الإسلام سوى التفكير النقدي البناء والفعال. هذا ما يجعلنا مقتنعين بأن مشروع المفكر فؤاد زكريا لم يجد بعد الأرضية الخصبة المواتية، وإن الطريق ما يزال طويلا وشاقا ولكنه ليس مستحيلا. يكفي أننا اكتسبنا التقاليد العلمية في الماضي ولكن بفعل أسباب تاريخية واجتماعية معقدة ومتداخلة فيما بينها شهدت المسيرة العلمية لدينا انقطاعا مما أدى إلى عدم توطد هذه التقاليد واضمحلالها ومن ثم تلاشيها.